

خطاب صاحب الجلالة

في الجلسة الافتتاحية لدورة اللجنة الأوربية لمنظمة الصحة العالمية

سعادة المدير العام، أيها السادة :

إن المغرب ليشكركم على لساني أحر الشكر ويعبر لكم عن إعترافه بالجميل وفرحته وهو يستقبلكم فوق أرضه وأود أن يكون حديثي قريبا قدر الامكان من إهتماماتكم ومن المسؤوليات التي تتحملونها لأني أعتقد أن رئيس الدولة كيفما كان النظام الذي ينتمي إليه هو في شكل من الأشكال شبيه بالطبيب، إنه يتعين عليه أن يؤدي يمين الاخلاص ويعمل على شفاء المرضى من الأفراد والجماعات وقد كانت في الماضي مسؤوليات الأطباء ومسؤوليات رؤساء الدول تسيران جنبا الى جنب دون أن تتداخل. أما في عصرنا هذا في هذا العالم حيث لم يبق هناك مجال للتخصص في المشاكل فقد أصبح لزاما على رؤساء الدول الذين يريدون الاهتمام بمشاكل رعاياهم أن يدرسوا جميع القضايا التي من شأنها أن تؤثر على سير الدولة أو على سياستها سواء منها الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي ويتبين لنا بعد التحليل أن ليس هناك فصلا بين هذه المشاكل المتشابكة.

ويمكنني أن أعبر لكم عن وجهة نظري كرجل سياسة وليس كرجل مختص عما أعلمه عن الأطباء ومساعديهم وهم الموظفون المختصون وعن خصومهم وهم الميكروبات والفيروسات.

وأخيرا من المفيد إلقاء نظرة عامة على الطبقات الاجتماعية التي يجب أن يتوجه إليها هؤلاء الأطباء بعلاجهم.

ويواجه أطباء اليوم مشاكل تكون أحيانا متناقضة فيطلب منه أن يظل هو هو نفسه إنسانا لا أن يكون موظفا ويطلب منه أن يدرس حالات أكثر خاصة بالنسبة للأمراض الشخصية كما يطلب منه أيضا أن يبذل مجهودا عظيما يتمثل في تجرده ليدخل في الاطار العام لتجهيز البلاد والأمة وهنا نعترف بأن هذا مصدر للخلاف قد يفهم أحيانا فهما خاطئا يؤدي الى إنطباع الطبيب لدى الدولة بأنه لا يبحث إلا عن الربح أو أن ينطبع لدى الطبيب أن الدولة ليست إلا عجلة ضاغطة تصر أبدا على إخماد شعلات الذكاء لصالح متوسطي الذكاء.

وإننا نرى شخصيا أن هذه الاهتمامات لا تتنافى أبدا مع الاهتمامات الأخرى شريطة أن يعتبر كل من الدولة والأطباء أنفسهم جميعا يركبون سفينة واحدة وأن تعميم الصحة الجيدة مقدر بطبيعة لا من مجهود الدولة فقط ولكن أيضا من مجهود الأطباء ويسمح بالانكباب على البحث والتدقيق وأن يعالجوا مرضاهم بعناية أكبر لا أن يستعرضوهم في عياداتهم كالزبناء للتخلص منهم.

إننا هنا أمام مشكل لا تواجهه الدول السائرة في طريق النمو فحسب فقد عايناه في أوروبا وفي الولايات المتحدة كما لاحظناه في الدول الشرقية ان هنا تكيفا بل إعادة تكييف، وليس الطبيب وحده هو الذي تغير كما سيتضح لكم بعد ذلك بل ان خصوم الطب وأعداءه الذين هم الجراثيم والفيروسات قد تغيرت بل ان سلوك المادة الأولية التي يعالجها الطبيب وهي المريض قد تعرضت أيضا لتغييرات وتحولات.



ولهذا فإن هذه البلدان التي يتعين عليها أن تنمو بكيفية متناسقة لا يجب أن تعكف فقط على التكوين المكتمل لأطبائها؛ فالطبيب بمثابة رئيس أركان الحرب أو قائد الجيش ليس وراءه الاطار الضروري من كبار أو صغار الموظفين ولا التجهيز التقني والعلمي ولا آلات القياس والتحليل وأخيرا فإنه لا يتوفر على هؤلاء الذين يحملون الجرحى من ميدان المعركة على الممرضين والممرضات المختصين الذين يستطيعون بأنفسهم أن يشخصوا الأمراض حالا أثناء غياب الطبيب سواء كانت بداية إغماء أو المرحلة الأولى لتوقف نبضات القلب إذ من المؤكد أنه من الصعب على الطبيب أن يسعف المريض مباشرة ويعمل بالتالي على إنقاذه.

إن هذا سيلزم بالتالي أن نوجه عناية كبرى لا فقط لاختيار الموظفين المساعدين بل لتكوينهم ويجب أن نقوم بهذه العناية قبل كل شيء لأننا يجب أن نقبل من أجل ذلك موهبة العلاج.

إن الميل الى القيام بمهنة الطبيب ميل عقلي صرف له مبرراته الخاصة؛ أما عمل المساعدين الصحيين فذلك شأن آخر، إنه عبودية ثابتة عبودية لا تذوق فيها طعم النوم ولا تتمتع بعطلة أو راحة إنها عبودية تؤدي بنا الى ممارسة المهام التي قد تبدو في نظركم تافهة ولكنها في الواقع أكثر المهام إنسانية.

ولهذا يجب اعتبار الميل في هذا الميدان شيئا أهم ولكن الموهبة وحدها لا تكفي يجب أن توجه نحو تكوين مهني مكتمل وهنا تنشأ مشاكل أخرى تواجه الدولة؛ فوجود هؤلاء المساعدين الصحيين ضروري هل ستدللهم الدولة وتدخلهم في إطار ممتاز أو تتركهم في المستوى الذي هم فيه وتتركهم ضحية الندم على الطريق الذي اختاروه، والأسف على تكريس أنفسهم لعلاج إخوانهم.

وهنا أعتقد بأن هذه مسألة إختصاص وإختيار سياسي يجب أن تتبناه الدولة تبعا لوسائلها وخصوصا بالنسبة لاحتياجاتها؛ ونستطيع أن نقول بأن كل شيء في عالم اليوم كان عرضة لكثير من التحولات السياسية إلا أسس الكون فلم نعد نتكلم عن الأمم ولا الفرق بل أصبح الكلام عن القارات بل وعن العالم.

لم نكن وحدنا عرضة لهذه التحولات، فقد تعرضت لها كذلك الميكروبات والفيروسات وليس لدي ما أضيفه الى معلوماتكم في هذا الميدان ولكن توجيه أنظاركم بصفتي رئيس دولة يرى بعض المتاعب الناجمة عن ظهور أمراض مجهولة أو عودة أمراض أخرى بصورة أشد كانت قد اختفت من قبل فأصبحت صعبة العلاج وأحيانا أكثر فتكا، من الواجب علي أن أضع أمام ضمير المنظمة العالمية للصحة وعلمها مشكل تحولات هذه الأمراض عدوة الطبيب والتي يجب أن نجد ضدها سلاحا ناجحا، فهل يجب القول بأنه يتعين علينا تكوين أنفسنا للقيام ببحث علمي على أي دواء وبأي ثمن؟ لا أعتقد ذلك، إن ما أعتقده شخصيا هو أن هناك من الأدوية في العالم أكثر من اللازم ولو منعت هذه الأدوية أحيانا بكيفية لا حدود لها أو بيعت بأثمان غالية ولا يجب أن ننسى أن الدواء والطبيب قد دخلا جميع البيوت، ففي وقت من الأوقات كانت الدراجة، ثم الثلاجة والراديو والتلفزيون وأحيانا السيارة؛ والآن نجد الطبيب وأنبوب الدواء ووعاء البرهم وقارورة البنسلين كلها قد دخلت المنازل وهذا يشكل جزءا من ميزانية البيت، وهذه الميزانية يجب أن نحقق لها توازنا ونحافظ على هذا التوازن.

كذلك أريد أن أعرض لدراستكم وتقديركم الصحيح لا مشكلة إنتاج الأدوية فحسب بل قضية أسعارها أيضا وذلك حتى يمكن تسويتها بكيفية عالمية أو دولية، إذ أن المنظمة العالمية للصحة إذا كانت مهمة العلاج ملقاة على عاتقها فهي مدعوة قبل كل شيء الى مكافحة الجوع، وعليها أن تهيء السبل أمام كل بيت لأن يقتصد

أقصى حد ممكن من نفقاته ليستطيع مواجهة الغذاء والتعليم والسكنى قبل كل شيء.

أما فيما يخص المريض فقد تكون الأمور مختلفة جدا؛ فإنسان عصرنا الحالي كائن فاقد التوازن، إنه لم يفقد التوازن العقلي وليس هذا قصدي، بل أريد أن أقول أن الله قد وهبه قلبا وعقلا وأنهما قد تطورا بصفة غير متجانسة، فعقلنا وصل الى مرتبة من المعرفة يستطيع أن يتصورها الكل ما عدا أجدادنا، أما جسدنا فقد ظل كما هو سواء في أوعيته الدموية أو القلبية أو في جهازه العصبي أو الجهاز الغذائي أو جهازه الهضمي فلم نتغير، ولهذا فنحن غير متوازنين إذ أننا لم نخلق لنقاوم الاشعاعات الكونية ولم نخلق لتحمل السرعة المفرطة ولم نخلق للنزول الى أعماق البحر وبالطبع لم نخلق لننفذ الى أجواء الكون.

وهنا تتمثل المأساة الكبرى للمريض وهنا تتمثل المأساة الكبرى لانسان القرن العشرين الذي يجد نفسه فاقدا للتوازن بين حياته النفسية وحياته الجسمية.

ولهذا أيضا نجد في المجتمع الذي نعيش فيه نوعية للأمراض تبعا للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الأفراد فإبتداء من درجة معينة من المشاغل والمتاعب نجد مثلا أمراض الجلطة الدموية وتصلب الشرايين وإبتداء من مستوى آخر يصاب الأفراد بأمراض ميكروبية تأتي من البيئة التي يعيشون فيها سواء من الهواء المحيط بهم أو الماء الذي يشربونه أو الأوساخ التي يعيشون فيها. ولهذا أعتقد وجوب عدم إعتبار العامل الجغرافي في معالجة الأمراض فليست هناك أمراض افريقية وأمراض آسيوية وأمراض أوروبية، بل هناك أمراض من صنف خاص إن الأمراض التي نجدها في مدن القصدير بالدار البيضاء هي نفسها التي نجدها في باريس وشيكاغو ولندن وروما وموسكو وبيكين، فمرض شلل الأطفال الذي يوجد في المغرب لا يختلف عن الشلل الذي يصيب الأطفال الآخرين في المياه الملوثة بجراثيم هذا الميكروب؛ وحمى المستنقعات لدينا هي نفسها في البلاد الأخرى.

ولهذا أرى أن من الواجب علينا أن نواجه مشاكل الأمراض لا بتحديدها في الأقاليم في أوروبا وأمريكا وآسيا بل بتحديدها حسب تدرج الطبقات الاجتماعية إذ هي أمراض خاصة بالأوساط التي نعيش فيها.

ألقي بالرباط

الثلاثاء 20 جمادى الأولى 1386 — 6 شتنبر 1966